على هامش مشاكلنا الثقافية

غايتنا من التعليم

للأستاذ رضوان ابراهيم مصطفى

هل نحن سائرون في اتجاه صحيح؟ وهل لنا هدف في هذا الاتجاه؟ وإذا كان ... فهل نحن جادون في تحقيقه؟

.. أسئلة لا بد أنها تدور في خلد كل متأمل في حياتنا العامة وحياتنا التعليمية على الأخص. والاجابة عنها قصيرة غاية القصر ولكنها مؤلمة أشد الايلام، لأنها إجابة حاسمة صريحة، لا تحتمل الأشياء واحداً هو «لا» ممتدة ذات شعبتين تشقان في حلوقنا، وتطبقان على أعناقنا!!

الغاية الحقة من التعليم شعبة من شعب السياسة العليا، يرسمها في كل أمة زعماؤها الراشدون، الذين يعرفون أين يتجهون بأممهم في معترك الحياة. وفي ضوء هذه السياسة يبتكر القديرون الوسائل الناجعة الكفيلة بتحقيق الهدف، وادراك الغاية.

فهل من الحق أن في زعمائنا هذه الكفاية المقتدرة على النظر في مقومات شعوبنا نظرة عميقة بصيرة واعية، تلائم بها بين هذه المقومات وبين ما ينبغي أن تهدف له حياتنا من مستقبل منير، واضح المعالم متوافق مع طبيعة الزمان والمكان اللذين تشغلهما هذه الحياة؟

وهل من الحق أنهم قادرون على تكييف حياتنا، وتجديد طاقتها الحيوية المتدفقة من منابع الماضي وينابيع الحاضر — في سبيل جدي معلوم، لغاية حقيقية معلومة؟

الحق أن هذه منزلة لا يستأهلها إلا قديس، يؤمن بنفسه أوثق الايمان، كما يؤمن بأمته ومستقبلها، ودورها في الحضارة الانسانية، إيماناً لا تزعزعه أعاصير الحياة مهما

تزأر ... ويؤمن – من قبل ومن بعد – بقدرة السماء التي لا تقهر!

هذا الايمان كان – ولا يزال – مفتاح المعجزات، فمرأً لكل عقبات الحياة هازئاً بصعابها مهما احتدمت، وهالت وتأزمت . .

فدلوني على قديس واحد بين زعماء الشرق مؤمن بنفسه وبأمته ولو أضعف الايمان .

.. دلوني على طبيب واثق بقدرته، مؤمن برسالته، يضع المرهم على جراح الأمة دون أن يحقرها أو يزدريها، لأن جراحها لا تنزف ذهباً !

دلوني على الزعيم الواسع الأفق، المتكامل النفس، العميق النظرة الذي يتفوق على حاجات أمته، فيتسامى إلى آفاق الانسانية العليا ثم يمديده القوية، فينتشلها من حضيضها الى مجالي السمو ومسارح النور – بدل أن يتنزل هو إلى أوحالها، ويتمرغ في ترابها، ليقال : إنه منها واليها ؟

عزاء الشرق – أول العزاء – في زعمائه وقادته وقادة الزعامة قد عادت حرفة يحترفها بعض المستغلين في الأمم المستغفلة، ليعيشوا في أبراج من الذهب تاركين الشعوب في الأوحال ساخرين من معاثرها، هازئين بآمالها .

ولا أظلم الواقع إذا تراءى لي من خلال الوقائع أن ذلك عن رضى واختيار ... لا بل هي مؤامرة مدبرة أن يحافظ الزعماء في الشرق العربي على مستوى من الجهل في الشعوب التي يتزعمونها، إذ من الخيرلهم أن يقودوا قطيعاً ضالاً جاهلاً لا يناوىء ولا يماري ولا يعارض، لأنه لا يرى واقع الحياة كما يجب أن يراه الأحياء .

هم حريصون على هذا المستوى من الجهل، ومن هنا كانت سياسة التعليم عندنا غير واضحة المعالم، ولا معروفة الأهداف، وإنما هي مسلاة تتلهى بها طفولة شعب غافل في غير وعي ويديرها رعاة مسيرون في غير رعي .

هذه واحدة، أما الأخرى، فالعجز عن رسم الاتجاه، وتوضيح الطريق، وتحديد الغاية .

ومن هنا حبط ما صنعوا، لأنهم يتخبطون على غير هدى ولا تبصرة ولا استمساك في هذا الجو المتميع المضطرب .

لم يبق لتوجيه سياسة التعليم – إذن – غير رجال التعليم، وهؤلاء يجب أن يدخروا لما يسروا له، من تلوين الصورة وإخراجها على ضوء الخطوط الأولى، أما أن يكلفوا

تحديد الغايات العليا للأمة ، ويقرروا الهدف الأسمى للتعليم ، وهو الذي يكيف كيان الدولة ، ويتحكم في مستقبلها طويلاً من الأجيال — فذلك ليس إليهم ولا هم عليه قادرون.

ليسوا قادرين ، لأن في ثقافتهم نوعاً من التخصص الذي يميل بهم ذات اليمين وذات اليسار ، مما لا تؤمن معه العثرات ويعوق عن الأفق الأعلى ، ويترك التعليم يدور في حلقته المفرغة المعهودة .

وليسوا قادرين ، لأن أمور الدولة ليست إليهم حتى يطاعوا ولا رأي لمن لا يطاع . وهم غير قادرين لأسباب تشرحها طبيعة الحياة التعليمية وظروفها في هذه البلاد بالذات . والأمر — فوق هذا وذاك — تكليف بما لا يطاق ، فاذا لم يطيقوا انصرفوا من الانشاء الى استعارة قوالب مستوردة من الخارج ، مصنوعة لأمم غير الأمم ، وديار غير الديار ، وهم لا يحترزون بأن يؤقلموها أو يمنحوها جنسية بلادنا . ولأن نبقى عراة خير من أن نلبس فضفاضاً من الثياب ، يجرجر أذياله في ترابنا ، فيثير حولنا عجاجات يحسبها الرائي غبار معركة ، وما هو بها . أو ضيقاً يبرز سوآتنا ، ويعصر أجسامنا ، ويشل حركاتنا . وفي ذلك ما يدفعنا إلى تغيير أهدافنا وتبديلها بالسهولة التي نغير بها هنداماً ، وفيه من التعويق والتضليل ما يضيع معه الزمن ، وهو أثمن ما في الحياة الحديثة من مقومات .

أهداف التربية في بعض البلاد هي « تكوين المواطن الصالح » فاذا حاولنا استعارتها لبلادنا ، فأي مواطن صالح تكونه تربيتنا ؟

المواطن في كل وطن عضو في هذا المجتمع ، يعرف أهدافه فيندفع لتحقيقها ، وهو بذلك يضع لبنة في هذا البناء العملاق الضخم الذي يحصنه كما يحصن كل المواطنين من العوادي ، فكل خطوة يخطوها الفرد إنما هي انبعاث في سبيل اسعاد المجموع والأفراد على السواء ، لأن الأمة كلها جسم متماسك منسجم متوافق لا يطغى عضو منه على عضو .

لذلك ينبعث الفرد ليحقق — لأمته ولنفسه — مستوى من الحياة ترضى عنه الانسانية ، ثم ينطلق مرتاداً آفاقاً جديدة تجعله قادراً على التفاعل مع الحضارة الانسانية ، مؤثراً فيها متأثراً بها ، متطلعاً الى قيادتها نحو سعادة دائمة فاهي فكرة المواطن عندنا ؟ إنها فكرة من الوطنية غامضة فردية مستقلة ، مهما تسامى فلن تعدو تحقيق آمال الفرد بنفسه ولنفسه في دائرة منقطعة عن العالمية والانسانية .

وما نصيب مدرستنا من العمل لهذه الفكرة أو الانحراف عنها ؟ لقد قيل إن المدرسة مرآة تنعكس عليها صورة حقيقية مصغرة لحياة الأمة وآمالها . فأية صورة للحياة هي

مدارسنا اليوم ؟ وما الصورة التي نحب أن نعكسها لحياتنا ؟ أهي الحياة كما نحسها ونلمسها ... حياة الواقع المتناقض المسف الموغل في المادية المثقلة بأوزارها وآثامها ومفاسدها ؟

.. أم هي الحياة كما نتخيلها : كريمة متسامية تهدف نحو المثل الانسانية ، روحية تتنسل الفرد لتطهره من أرجاسه ، وتتصاعد به إلى ملأ أعلى ؟

.. أم هي مزيج مما يسر وما يسوء ، وما يجمل وما يقبح : من المادية الجارفة في طغيانها ، والروحية السمحة في سموها ؟ وهل أفلحت المدرسة في تصوير الحياة — أي حياة — لروادها .

ومن قبل ذلك : أية حياة هي التي نريد أن نطرح ظلالها على المدرسة ؟ أهي حياة أمة زراعية أم صناعية أم تجارية ؟ أمة محاربة أم مسالمة ؟ متدينة أم لادينية ؟ معتزلة أم منعزلة ؟ وما مركزنا في الاندماج ، ومادورنا في الحضارة الانسانية ؟ وأخيراً ما الوسائل التي ننتهجها لابراز هذه الصورة في المدرسة ؟

الحق أن المدرسة قد فشلت في تمثيل هذا الدور فلم تستطع أن تقدم أية صورة للحياة في أي لون من ألوانها ، بل جاءت الصورة التي رسمتها باهتة شاحبة مقلوبة مطموسة ، لا تبين منها معالم ، ولا تتميز فيها ألوان .

آية ذلك أنها تقذف إلى الحياة أشباحاً يتخبطون في واقع الحياة ، ويصبحون أمثلة حية للفشل في مختلف الميادين ، قد اضطربت فيهم الروحية إلى حد الالحاد ، وأمدمت فيهم المادية إلى درجة الخمول ، وتزعزع إيمانهم بأنفسهم ، وإيمانهم بأوطانهم ، وشحبت فكرتهم عن الحياة وتميعت .

ثم براهين ناطقة على أن المدرسة بعدت عن الحياة بدايتها ونهايتها ، واقعيتها ومثاليتها ، وسلكت وعراً مظلماً من دروب الحياة فأبعدت وأمعنت في التيه .

لم تفلح المدرسة إذن في تصوير أي جوانب الحياة ، لأننا أردناها مثالية تنشىء روادها على ما ينبغي أن يكون الانسان المثالي الذي يهيأ للمجتمع المثالي فما أفلحنا ، لأن تلك حياة لا يحياها الناس في عالم الواقع هنا ، ونحن نكلف الناشئة شططاً من أمرها اذا أرغمناها — في طراوة العود — أن تقاوم عواصف الواقع ، وتمثل ازدواج الشخصية فتجيد التمثيل في البيت والمدرسة .

ثم اننا لم نستطع أن نصور هذا الخيال الجميل في صورة أخاذة تجتذب ولو قليلاً من

الناشئة ، بل وضعناه في إطار من الرهبة التي تشيع القلق وتغري بالفرار .

ومرد ذلك أننا لم نؤمن بعد بأبنائنا ومستقبلهم ، وليس لنا من الاخلاص ما يسبغ على مهمتنا الشاقة لوناً من الجلال يغرينا بالتضحية في سبيلها ، ولأننا — في آخر الأمر — ليس لنا ولا لأبنائنا هدف يغريهم ، ويعزينا عما يصادفنا من عقبات وآلام .

وأيا ما كانت الأسباب فقد فشلت المدرسة في هذا الأتجاه ، وبات عزلها عن الحياة ضرباً من العبث والضياع فاتجهنا مع المتجهين الى تمثيل الحياة ، ونظرنا في حياتنا فلم نجد بها شماعة من ضوء تنفذ إلى الطريق فلنسري على هداها . وفي حنادس الظلام ذهبنا نتلمس أعلام الحياة ومعالمها ممثلة فيمن يسمونهم كبراء وعظماء وزعماء وقادة ، لنتخذهم أمثلة حية ننسج على منالهم ، ونتدبر أعمالهم ، ونغري بها ونوجه إليها . وما هي إلاّ خطوة أو خطوات حتى تضاءلت الاعلام وتهاوت المعالم ، وصغرت الأعمال ، وفي ضوء الحقيقة نظرنا فاذا المعالم ما هي إلاّ أحجار القبور ، يفوح منها القذى ، وتنطرح فيها الرمم ، ويعيث فيها الدود . .

وإذا العظائم ضباب هائل ، يغشى الأبصار ، ولكنه لا يعيش مع الضياء ، ولا يقو على الدفء ، فهو هباء ، كان وكأنه ما كان ، ومضى كأن لم يمش

وإذا هؤلاء العظماء هياكل ، رتعت في لحومها الديدان وقرّض عظامها السوس ، وبليت معالم الانسانية في منافذ وجوهها النخرة .

إن العظمة في الشرق تضليل وخداع وأوهام ، وويل للناشئة إذا فقدت القدوة الصالحة ، وويل للأوطان من أجيالها المتخبطة .

ثم خسرنا الجولتين فلم نعد مدرستنا مثالية ، ولم تعد واقعية لأننا لم نصرف زمامها في طريق واضح ، ولم نوجهها الى غاية محققة

ونحن طالما صدمتنا الاجابة المؤلمة كلما سألنا طلابنا في مختلف مراحل التعليم : لماذا يتعلمون ؟ لأنها اجابة حائرة قلقة ، أو هي اجابة أشد إيلاماً ممن يعرفون أن هدفهم الحق أن يصبحوا موظفين ! فما أتفه الغاية إن كانوا جادين ، وما أحقر الوسائل إن كانت هذه هي الغاية ، لأنها تعود بنا القهقرى الى السلاسل والقيود التي ظننا أننا تمردنا عليها وبرئنا منها .

أما إجابات المسئولين فهي أشد وأقسى ، لأنها أبعد في الحيرة ، وأمعن في الضلال إذهم لا يعرفون لهم غاية يدفعون هذه الجياد الهزيلة تتسابق اليها ، أو هي أهداف فردية متنافرة لا تستقيم معها سياسة .

لقد قضينا جيلاً من الزمان نائرين على السياسة التعليمية الاستعمارية ومع ذلك فلم نتحرر منها ، ولن نتحرر بهذه الوسائل العاجزة .

لن نتحرر منها لأنها كانت سياسة ثابتة الأهداف فكبلتنا بقيودها أما نحن فلسنا ذوي أهداف في التحرر منها ، ولو كنا كذلك — لو أقمنا سياسة مقام سياسة ، ووضعنا أهدافاً بدل الأهداف — لأفلحنا في إيجاد ثغرات ننفذ منها خلال القضبان ثم لحطمناها تحطيماً .

لقد أصبح لكل عمل من أعمال الحياة فلسفة ، ولكل فلسفة أهدافها فعجيب أن تبقى سياستنا التعليمية خاضعة لتصرفات فردية وأفكار طارئة لا يستقيم معها عمل ، ولا ينجمع في سبيلها جهد ؟ لم لا يكون لنا غاية ثابتة نتحراها في كل خطة نهجها ، وكل خطوة نخطوها وكل عمل نعمله لنستطيع أن نقيم عليها دعائم ثابتة لحضارة عتيدة تنافس حضارة الغرب إن لم تفقها ، وتعيد لهذا الشرق مجده الغابر ؟

إن فقدان الهدف قد أفقدنا القدرة على ترويض هذا الوحش الكامن في الشباب ، وأصبح التعليم صراعاً بين المعلم الذي يمثل الدليل المضلل في متاهات الحياة ، وبين الطالب الثائر المتمرد الضال .

لقد جمح الشباب شارداً لأن زمامه ليس في أيد موجهة ، وركب رأسه في مجاهل الحياة فتاه وأصبح مرتعاً صالحاً للمبادىء الضارة والآراء المتطرفة ، لأنها في نظره القاصر — ذات صورة براقة ، ونهاية سارة .

لذلك استهوت عقولهم هذه الألوان من الأفكار ، وخدعتهم عن أوطانهم تلك الطواريء من لمعات السراب ، وغزت أخلاقهم هذه الجيوش من الخلاعة ، وبدت رجولتهم ميوعة وطراوة وشذوذ لم تعهد في شباب أمة تواقة إلى مجد طريف ، أو منحدرة من أمجاد تالدة عريقة .

وفشل المدرسة في مهمتها ليس فشلاً فحسب ولكنه كارثة تجتاح الأمة وتمهد لافنائها .

ومرام هذا الفساد الذي يكاد يجرفنا لا يطامن من سورته إلا أن نكون أمة لها في حياتها مهمة ، ولها من وراء هذه المهمة حقيقة تنشدها وتسير على هديها .

أشعلوا النور ، وأقيموه على سواء السبيل ، وأقيموا على هداه علماً نوفض إليه ، ونتراكض نحوه ، فإن أجدر وأجدى ما تشيدون من صرح أمة نشئة هو الثقافة ، وأول وأولى ما تبنون من صروح الثقافة هو المحور الثابت المركز على أرض صلبة لا تمار ولا تميد .